من تراب الطريق (٥٦٤)

الذات بين الأنا والآخرين (*) (١)

اعتاد الناس أن يوجهوا سهام نقدهم إلى غيرهم ، وأن يأخذوا على هذا أو ذاك ، عيباً أو آخر من العيوب ، دون أن يعنى اللائم الناقد بالالتفات إلى ما فيه هو من عيوب أو إلى ما إذا كان هذا العيب الذى يأخذه على غيره عالقًا به هو نفسه أو غير عالق ، فإذا لم يكن بوسعه إنكار وجوده فيه ، تغيّا تخفيفه ما دام يعيبه ، وسوّغ لنفسه أنه ليس إلاَّ ضعفاً بشرياً مشتركاً بين الجميع بدرجة أو بأخرى .. ونحن لا نفطن لذلك إذا فطنا إلاَّ فى لحظات تأمل قليلة .. فيها يرتد وعينا إلى داخلنا تاركاً وراءه عالمنا الخارجى ومواجهته التى لا نكف عنها فى يقظتنا ونومنا .. فنحن بغير انقطاع وبقصد أو بغير قصد نصوب وعينا إلى الخارج .. وهذا الخارج يشمل فيما يشمل جسمنا وصلاتنا مع الأقربين أو الأبعدين ، وهذا التصويب سلسلة من الأحكام التى نسميها رأينا أو تقديرنا .. نصدرها نحن على كل ما هو غير نفوسنا .. ويدخل فى هذا الغير شكلنا أو صورتنا فى المرآة أو فى الصور الفوتوغرافية .. لأن وعينا لا يمكن أن يتخلى عن الإحساس بالذات ، ولا يتوقف عن أن يُحَكِّم ذاته فيما حوله من أشخاص وأشياء .. لأن نفوسنا تبحث حولها دائماً عما يرضيها ، ولكنها تقع حتما وراغمة على جانب أو شيء لا يرضيها .. وهى لا تتخلص من الإنصات لذاتيتها إلا تكلفاً وافتعالاً واجتهاداً وفيما يتحول بعد ذلك إلى عادة أو ما يشبه العادة .. وإذا تم ذلك لأحد فإنه يشعر بغرابة الناس

(*) المال ٢١/ ٢/ ٢٠١٢

من حوله ، وكثيرا ما يشعر بأن هذه الغرابة نقيصة تكشف عن غرور أو نزق أو قلة نضج .. أى أنه فيما بينه وبين نفسه يرتكب إثم إصدار أحكام شخصية على غيره لا ترضيهم إذا ما عرفوها ، وحتى الآن لا سبيل أمامنا لاستثناء جميع الناس من أحكامنا على الأشخاص وعلى الأشياء التى يمس حكمنا عليها بفطنة أو كرامة أو ذوق أصحابها أو من اختاروها أو قبلوها ، ولذلك لم تنجح قواعد الأخلاق فى أى زمن فى تغيير هذا الجانب من البشر أو السلوك البشرى وقولهم «لا مشاحة فى الأذواق » لا يعالج شيئا .. لأنه يسلم باختلاف أذواق الأفراد وأذواق الجماعات ، ورأى كل منا فى ذوقه أو ذوق جماعته ، ورأيه فى ذوق الآخرين وإن كان يوحى بعدم المشاحة .

وهذه الظاهرة لا تواجه الآدمى فى الأمور التى لا تمس ذاته .. لأن ذاته ليس له أو لها دخل فيها .. وإدخال الذات نفسها فيها لا يكون إلا دفعا لاتهامها الصريح أو الضمنى بالخطأ أو الإهمال أو التحايل أو الغش . فالمعارف والعلوم الموضوعية والرياضية فيما عدا المسابقات التى تعقد لاختيار الممتازين واتحافهم بالجوائز هى من هذا القبيل .. لا مكان فيها لقيمة الذات عند صاحبها أو عند الآخرين .. كذلك عمليات الصناعة الكبرى والبنوك والبورصات وعمليات الاستيراد والتصدير والاستثمار والتوزيع وغيرها من العمليات التى يستلزم تحقيقها على وجهها تأخير مطالب الذات وأهوائها .

لأننا لا يصح أن نسأل ماذا يضير إذا تخلص الآدمى من ذاته كلية ؟ وكيف تبقى الذات ذاتاً كما نشعر بها إذا تخلصت كلية من الرغبات والأهواء الخاصة بها أو التى تشتهى تحقيقها ، مثل ما حققه غيرها أو على صورة أخرى

معدلة حسب ذوقها هى .. أعتقد أن تطور الآدمى يشمل حتما تطور ذاته ، ولا يستتبع إلغاءها ، هذا وتطور الجماعات البشرية يقتضى حتماً تطور أفراد منها يساعدون على تطوير الآخرين فيها .. وهذا بداهة لا يتأتى بإلغاء فردية الأفراد وتحويل الفرد إلى آلة انفعالية من الذات الواعية المختارة الراغبة المشتهية . ومهما يكن تحت تصرف الإنسان فى مستقبل قريب أو بعيد من أجهزة تضبط أحكامه واختباراته بلا مشقة أو ببساطة ، فإن تلك الأجهزة ستبقى خارج نفسه حتى ولو لم يمكنه الاستغناء عنها لتوفير صورة الحياة التى تشتهيها نفسه لذاتها .. لأنه سيظل حياً آدمياً لا يعيش إلا بين آدميين أحياء يتبادل معهم المحبة والخصومة والقرابة والفرقة والصداقة والعداوة والتعاون والتنافر ، حتى لو استبعد أو سُجن أو نُفِى . فالآدميون يلدون الأحياء ويوجهونهم ويتفاعلون لمرض المريض وعاهة ذى العاهة ، ولكن لا يصنعون الآدميين ولا يمكنهم صناعتهم .

وتطور استعدادات الآدمى فردياً وجماعياً ، يحدث دون أن يقصد بما يشبه القدوة ، ابتداءً من المحاكاة اللا إرادية أو الإرادية ، كما يحدث قصداً ابتداء من التلقين والتعليم والنفوذ والسلطان .

من تراب الطريق (٥٦٥)

الذات بين الأنا والآخرين (*) (٢)

تنمو ذات الآدمى مصاحبة لنموه من ساعة مولده ومعها نمو شعوره بحاجاته ومطالبه ورغابه ومعها مطامعه . ومطامعه هى رغباته المتخيلة المرجو تحقيقها رجاء قريباً وبعيداً راجحاً أو غير ذلك .. ونمو هذا الشعور بتلك العناصر هو فى نفس الوقت مصدر الشعور بقيمة الذات وأفضليتها الذى يزيد وينفسح مع اتساع الآمال ويضيق مع ضيقها حتى يكاد ينعدم فى أحوال القنوط واليأس . ولذلك فإن من يولد فى العز والثراء والاهتمام ، يولد معه احتفاؤه بذاته .. لأن المحيط من حوله يشعره من أول لحظة برفعة شأنه على شأن من حوله من الأتباع والقائمين على خدمته ورعايته . وبامتداد حياة هذا المولود المتميز يمتد ويزيد شعوره بنفسه وأهميته وتميزها على غيره حتى على أهله ومن هم فى طبقته .. وهذا يبدو لديه طبيعياً لا يحتاج لبرهان من موهبة أو فضيلة أو عقل ونضج وجهد .. لأن كرامته فوق كل اعتبار وفوق كل شىء .. وعكس ذلك معظم من نشأوا فى الفاقة الذين تحدد نشأتهم حدود أمانيهم فى حياتهم بحدود آبائهم وآباء آبائهم ، ولكن قلة من هذا الفريق تولد قلقة متوترة تنظر حولها فى كل اتجاه تترقب الخلاص مما تعانيه وترقب المهمين ذوى النعمة ، وتطمع أن يكون لها ما لهم وتحاول ذلك إما بالإسفاف والرذيلة أو الجريمة ، وإما بالاجتهاد والصبر والذكاء والمثابرة ..

(*) المال ٢٢/ ٢/ ٢٠١٢

وكل من هذين الفريقين فاشلهم وناجحهم ينمى ويضخم دون أن يشعر فى البداية ينمى اعتزازه بنفسه واحتقاره المكتوم للآخرين ، فإذا فاز ببعض ما اشتهاه ، قلد ذوى النعمة فى سلوكهم الظاهر ، وأعلن شعوره المبالغ فيه بقيمة ذاته بكل حيلة ووسيلة !!

هذه ظواهر عامة فى التركيز على الذات ، ذات الفرد وذات الجماعة ، تبدو أكثر قرابة بعالم الحيوان منها بعالم الإنسان العامل المفكر المتأمل الذى تفطن لوجود الكون وميز وقارن بين الكون وبين الآدميين أفراداً وجماعات ، وبين قياس مكان هؤلاء بالأمتار ومضاعفات وأجزاء الأمتار ، ومكان الكون بالسنين الضوئية ومضاعفاتها وأجزائها ، وبين قياس زمان الآدميين بالساعات ومضاعفاتها وأجزائها ، وزمان الكون بالعصور والأحقاب ومضاعفات أجزائها ، ولاحظ أن الآدميين هم وأرضهم وعلمهم وجهلهم ذرة فى هذا الكون العظيم .. مثل ذلك الإنسان العاقل المفكر المتأمل يجد نفسه قد غاص فى بئر من الشعور الغامر بتفاهته وتفاهة جنسه وتفاهة ماضيه وحاضره ومستقبله فى هوان وضآلة لا حد لها ولا آخر .. لا يخفف منها إلا تعلقه عقلاً وجسداً وحياةً وموتاً بخالق ذلك الكون العظيم الذى لا يعرف ولا يمكن أن يعرف منه وعنه إلاّ ما قد تعرف النملة من الطود الهائل والسمكة الحقيرة من المحيط !!

ولذلك حق لشعورنا المشتعل بالقيمة الذاتية بنفسها وبأهميتها وبوجوب تفضيلها على وكل قيمة أخرى أو شىء آخر حق لهذا الشعور السائد أن يتقلص ويضمر مع نمو نصيبنا من الوعى بالكون وبخالق الكون .. ولكن يبدو أن نمو هذا الوعى الكونى لدينا ظل أبطأ من نمو ذاتنا ومطالبها وعواطفها وأهوائها وقدرة ذاتنا على استدامة توجيه أعيننا إلى الأرض وإلى

ما نحب وما نكره مما تحمله الأرض ، ومع ذلك يبدو أن فى مشية الآدمى على قدميه وانتصاب قامته شيئا دائما يلفت نظره باستمرار إلى السماء وهو فى أحضان الأرض . ولعلّ ثمرة ذلك ما نراه الآن من أنشطة الإنسان فى الفضاء القريب من الأرض والخدمات التى تؤديها هذه الأنشطة للمقيمين فى الأرض فضلاً عن المعلومات الضافية والتفصيلية التى تتلقاها الأرض من المركبات الفضائية التى أطلقت وطافت وتطوف حول بعض الكواكب السيارة كالمريخ والمشترى والزهرة عن قرب شديد لما عاينته ونقلته ومازالت تعاينه وتنقله مباشرة من تركيبة تلك السيارات ومعالمها وأجوائها هى وأقمار منها مما زود ويزود المشتغلين بعلوم الفلك بزاد هائل لا ينقطع يحتاج استيعابه فضلا عن دراسته إلى أعمار .

نقول لعلّ ما نشهده الآن من ذلك يكون بداية لاتجاه حاسم ينقل الإنسان من انحصاره فى ذاته نتيجة انحصاره فى الأرض (نشأ وينشأ ويتوالد ويعيش ويموت فى أحضانها حتى الآن) إلى انطلاق فى الكون بكل عقله وعواطفه واستعداداته ومواهبه وبكل أجناسه وطوائفه وطبقاته وأفراده ليتخلص نهائيا من الحماقة والغرور والكبر الزائف والعناد والتصنع والرياء والكسل والتسلق والاغتنام والقسوة المادية والمعنوية التى يدين باتصاله بها لذلك الانحصار . وعندئذ ينتقل النوع الإنسانى بلا رجعة من اتصاله الشديد بعالم الحيوان إلى حياة خالية من المحدودية التى يفرضها عليه الآن الكفاح من أجل البقاء على الجزء الصالح للبقاء فى هذه الأرض !!

من تراب الطريق (٥٦٦) الذات بين الأنا والآخرين (*) (٣)

من قديم الزمان يوجد قلائل من الآدميين أكثر التفاتا وانتباها واتباعا للسماء ، أخلصوا لها الحب وفضلوها على الأرض وما فى الأرض وما عليها ، ورأوا بإيمان تام أنها أكبر بما لا يقاس وأجل وأطهر وأبقى من الأرض .. ومنهم من عاش زمانه وهو يرى أن مآل الآدميين جميعا إلى السماء ثوابا أو عقابا ، وكان ذلك ولا يزال ، اعتقادا شديد الكراهية والنفور والاعتراض على شرور البشر التى ليس لها آخر وإعراضا وفرارًا من قذارة الحياة وقبح النوايا وفساد الذمم وسواد القلوب وغلّها وقسوتها وتحجرها !!

ولذلك لاذ أولئك القلائل فى كل عصر بعضهم ببعض فى طوائف صغيرة ، يتعايشون فى محبة وعفة وصفاء وفقر وخدمة متبادلة وصلاة وابتهال .. ومن تلك الطوائف الصغيرة كانت بدايات معظم الأديان المعروفة .. منها نشأت طوائف الرهبان وفرق المتصوفة ، وانتشرت هذه الطوائف والفرق شرقاً وغرباً لأمد طويل ، ثم تقلص ظلها بانتشار تعليم العلم الوضعى ونفوذ الحضارة الحالية المنحازة إليه .

فلم يعد إنسان الأزمنة الراهنة صغيرا كان أو كبيرا لم يعد يشهد وجود صور الإيمان المستغرق والتسليم الكامل للغيب ، لا فى الأسرة ولا فى الجيرة ولا فى العمل ولا فى السفر والترحال .. برغم ما قد يجرى على لسانه من

(*) المال ٢٣/ ٢/ ٢٠١٢

مصطلحات الدين والتدين ، أو مع ما قد يقوم به من العبادات والطقوس . فكل ما عنده فى هذا الباب بات هامشيا لا يعوق طريق حياته ولا يعدل مساراتها ، ولكن قد ييسر ذلك عليه .. وهذه الهامشية كثيرة الوضوح فى الأزمات العامة والخاصة ، لأنها سهلة التقليد والمحاكاة للكافة .. فأول ما تخدع هذه الهامشية تخدع صاحبها الذى يعيش بها .. لأنها تزيده ثقة فى صحة ما يختاره ويفعله مما لم يتثبت من صحته ، وتزيده اقتناعا بما يحبه أو يكرهه وبمن يحابيه أو يعاديه . إذ لم يعد اتساع المعارف الوضعية وتعميمها مع كثرة العارفين بمبادئها من كافة الأجناس والطبقات لم يعد يسمح بوجود الكثيرين من شديدى الإخلاص ؛ المؤمنين بالخير والأخوة والمحبة الكاملة الاستعداد للتفانى فى نصرة الخير وإشاعته بإقناع الحاليين من أهل هذا الزمان إقناعاً مستغرقاً كما كان ذلك جائزاً محتملا فى الماضى البعيد وحملهم بذلك الإقناع وحده ؛ على تغيير أنماط حياتهم المكتظة بآلاف الأشياء والأغراض والمقاصد التى لكل منها موضعه فى عواطف الآدمى وعقله وخياله وذاكرته .

ربما كانت المعارف الوضعية قابلة دائما للمراجعة والتصحيح والحلول الأكثر صحة محل القديم الذى اتضح عدم دقته وزال عنه ما كان لدى القدماء من الثبات العنيد على العقيدة والمبدأ . إذ كان ذلك الثبات يعتبر جزءًا لا يتجزأ من كرامة الرجل واحترامه لنفسه فى عين نفسه وعيون من يعرفونه .

وإذا أمعن الإنسان فى النضج والفهم ؛ أحس بعمق الحياة بأسرها ؛ وقل احتفاله بالذات ومطالبها ورغابها الخاصة ، بل ذبل شعوره بها وبدأ يرى الوجود الشامل الذى نسميه الكون رؤية أكثر قربا وإدراكا وقيمة وجدارة

بالالتفات من الأشياء العديدة التى كانت ذاته تشتغل بها فى شبابه ، والتى صارت مع توالى الأيام والخبرات واتساع الإدراك صارت صغائر وتوافه مثل رمال الشاطىء وحصاه التى ينهمك الصبيان فى استخدامها لتشييد ما يصرفون نهارهم فى تشييده من القلاع والحصون التى يمحوها موج البحر ليلا !!

ومن قديم بين رواقيى الإغريق أمثلة على وجود ذلك الإنسان الناضج الفاهم مثل أبيكتاتويس الذى لم يحفل بالذات ولا بمكانها أو بمكانتها فى المجتمع ، ولم يأبه فهمه العميق للحياة والأحياء بما يسميه الآدميون بمقام الذات وكرامتها، حيث لا يمكن أن يكون لها كرامة فعلية إلا بالفهم وبضبط النفس وقمع أهوائها وأطماعها ومخاوفها مما لا يتأتى إلا بالفهم لا بالتقليد والمحاكاة .. وهذا لا تنال منه ولا من حرية العقل والروح والمصاحبة له لا تنال منه عبودية أو فقر أو خوف ؛ ولا يزيد فيه مال أو عزة أو أسرة أو مكانة أو سلطان . فكل ما يهول سائر الآدميين من بلاء وكل ما يستخفهم من عافية أو فوز أو كسب يستحيل أن يستأسرهم .. لأنه لا يصل إلى أعمال العقل والروح !!

ويبدو أن ملايين السنين التى مرت على الآدمى ؛ مرت كما مرت على غيره من الأحياء فى إطار تكاثرهم وكثرتهم وخضوعهم لنواميس ذلك التكاثر ، وأن تطور الآدمى وإن كان أقوى بكثير من تطور غيره بظهور النجباء والعقلاء فيه إلا أنه لم يغادر إطار الكثرة والتكاثر العشوائى إلى إطار الانتقاء العام الذى يجمع جماعات الآدميين المتقين الذين غالبيتهم الغالبة نجباء عقلاء روضوا عواطفهم وأحكموا ضبطها ، ففقدت جموحها وشططها وغرورها وقلة اكتراثها لسوء العاقبة والمآل !!!